من هنا يبدو الالتزام شرطا أساسيا لضمان أصالة الحركة فى الحياة الأدبية ، وهو التزام يتم على مستوى كل الأطراف من فنان وناقد ، دون أن يعنى هذا أن نطالب أيًا منهما أن يصبح مجرد مطية للتراث محكوما عليها بالانقياد ، أو إشهار الخضوع الذى قد يصل إلى حد الاستعباد ، بل يجب أنْ تؤخذ المسألة من خلال الاعتبارات الحضارية التى وقف عندها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في محاولاتهم لتقعيد حياة الأمم من خلال حسِّها التراثي الذى لا يقبل أن تغلق عليه الأبواب، وإلا مزقت كل صلة إنسانية له بحضارات الأمم الأخري، وعندها قد يحكم على نفسه بالذبول وربما بالموت ؛ ذلك أن الأجدي أن نعترف بطبيعة المؤثرات فى كل الفترات التاريخية من منطق المادة أولا ، ثم على مستوي الفكر والوجدان ثانيا، ومن ثم يصبح من حق الأمة أن ترصد من هذه المؤثرات ما يدخل ضمن نسيج تراثها ؛ ذلك الذى يكتسب استمراريته وبقاءه من خلال تواصل الأجيال التى تدين له بولائها وتضيف إليه ما يضمن حمايته وتطويره من خلال عبقريات أبنائها .

وبذا يأتى التوافق بين الحس الحضارى من هذا المنظور العام على مستوي الأمة ككل ، وبَيْنه على المستوى الخاص لدى الأفراد من مبدعين أو حتى غير مبدعين (من المتلقين) ، خاصة إذا جاز لنا أن نُسلِّم بأن فردا ما لايمكن إلا أن يكون ابنا شرعيا لبيئته على الصعيدَيْن المادى والاجتماعى ، في نفس الوقت الذى يبدو فيه ابنا لماضٍ طويل ورِّثه ذلك المجتمع لأبنائه ضمانا لإحساسهم بامتداد هذا الانتماء ، وإنقاذا لهم من حالة الفقد التي قد تتهددهم ، أو تمسخ شيئا من معالم هويتهم ، ذلك أن تعامل الفرد المبدع مع أدواته لا ينتهى بأي حال إلى عبقريته المزعومة دون سواها ، فلسنا فى عصر ربَّات الشعر ،ولا شياطين الإلهام ، ولاجن وادى عبقر ، بل إن عقلنة الأشياء أصبحت مطلوبة فى كل شئ ، الأمر الذى تتكشف من خلاله حقيقة هذا الإبداع من خلال الملكية الجماعية للأداة التي يعجز الفرد عن خلقها بذاكرته الآنية المفردة ، إذ تبدو اللغة – فى أدقِّ صورها – خَلْقاً جماعيا خصبا يتردد صداه فى ضمير الأمة على مدار عصور حياتها المختلفة ، وقد يصيب هذا الخلقَ كثير من ألوان التحوُّل والتجدد ، ولكن الحقيقة النفسية تظل قائمة حول استقراره فى منطقة اللاوعى أو اللا شعور إلى أن يخرج إلى حيز الوجود فى لحظة الإبداع أو التخلُّق الفنى .

من هنا بدت النظرة موضوعية إلى قضية التراث من خلال كل التصورات النقدية التى